

منهج الوسطية منهج النجم للحضارة العربية الإسلامية

■ دينغ جون (DING JUN)

أولاً: مفهوم الوسطية والاعتدال هو مفهوم جوهرى من مفاهيم القيمة للثقافة والحضارة العربية الإسلامية.

منهج الوسطية والاعتدال منهج أصيل في العقيدة الإسلامية، وقيمة جوهرية للثقافة والحضارة العربية الإسلامية، لذلك فقد جاءت نصوص كثيرة من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ترسم منهج الوسطية والاعتدال وتدعوا المسلمين إلى التمسك به إلى جانب مكافحة الأفكار المتطرفة التي تناقضه، ونبذ المفاهيم الضيقة التي تهمشه؛ ليكونوا مثلاً يحتذى في حب السلام، ونشر الرحمة، ولزوم الاستقامة، وخلق الانسجام. قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: 143]؛ فميز الله هذه الأمة - أمة الإسلام - بالوسطية بين الأمم مما يدل جلياً على عدّ الوسطية قيمة إسلامية مقررة في حياة المسلم، قديماً قالوا الحكمة الشهيرة: (خير الأمور أوسطها)¹،

1 - رواه البيهقي في السنن الكبرى (273/3) ولم يصح عن رسول الله ﷺ، وإنما هو من أقوال الحكماء، كما قال ابن عبد البر في الاستذكار، وقال الحافظ العراقي في تخريج =

■ أكاديمي في معهد دراسات الشرق الأوسط التابع لجامعة شانغهاي للدراسات الدولية، الصين.

والمقولة هذه وإن لم تصح حديثاً فإنها أشارت إلى أهمية لزوم منهج الوسطية، وخطورة الميل إلى الغلو (الإفراط) أو إلى نقيضه التقصير (التفريط)، وهذا ما أكدته السُّنَّة الصحيحة في قوله ﷺ: «إياكم والغلو في الدين فإنه أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين»¹. من هنا نستطيع القول بأن الوسطية الإسلامية ليست وسيلة لبناء السلام والانسجام الاجتماعي فحسب؛ بل هي مفهوم أساسي ينبغي للمسلم التزامه والعمل به في عقيدته وعبادته وجوانب حياته المختلفة.

الوسطية التي تتسم بها الحضارة العربية الإسلامية هي طريق السلام والعدالة. فكلمة الإسلام تعني السلام، وكلمة المسلم تعني الساعي إلى تحقيق السلام والمحافظة عليه والذود عمّا يضره ويؤذيه، وتحية الإسلام هي عبارة: «السلام عليكم» التي تعني إفشاء السلام بين الناس... قال رسول الله ﷺ: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»². أي علامة المسلم التي يستدل بها على إسلامه هي سلامة المسلمين من لسانه ويده. هذا وقد أمر الإسلام المسلمين بتقوى الله تعالى وحسن معاملة الناس، وإقامة العدل والإحسان إلى البشر، والحفاظ على البيئة، والتزام بقيم الاعتدال والرحمة والتسامح في نصوص كثيرة، منها قوله تعالى في محكم تنزيله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: 90]. ومنها قول الرسول الكريم ﷺ: «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمَكُم مِّنْ فِي السَّمَاءِ»³. وفي الحديث قصتان مشهورتان وردتا

= الإحياء: أخرجه البيهقي في شعب الإيمان من رواية مطرف بن عبد الله معضلاً. اهـ.

- 1 - أخرجه ابن ماجه، كتاب المناسك، باب قدر حصي الرمي، رقم 3029، وصححه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة رقم 1283.
- 2 - متفق عليه. أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، رقم 10. وأخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب تفاضل الإسلام وأي أمره أفضل.
- 3 - أخرجه الترمذي في الجامع، كتاب البرِّ والصلة، باب ما جاء في رحمة المسلمين، رقم 1924، وقال عيسى: هذا حديث حسن صحيح.

عن النبي ﷺ أن رجلاً دخل الجنة في كلب سقاه ماء فشكر الله له فغفر له¹، وأن امرأة دخلت النار في هرة حبستها فلا هي أطعمتها ولا سقتها حتى ماتت جوعاً².

الوسطية التي تنتهجها الحضارة العربية الإسلامية توجه المسلم إلى لزومها في أمور دينه عقيدة وعبادة. فلا يجوز للمسلم الإفراط في أمور العقيدة ولا التفريط فيها، فلا ينبغي نسيان الدنيا بحجة الإيمان بالآخرة، ولا ترك السعي وراء الرزق بحجة الإيمان بالقضاء والقدر؛ بل عليه أن يجد ويجتهد ويسعى كي يفوز بخيري الدنيا والآخرة. قال الله تعالى في القرآن الكريم:

﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ

مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص: 77]. وفي الحديث عن

أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رجل: يا رسول الله

أعقلها وأتوكل، أو أطلقها وأتوكل؟ قال: «اعقلها

وتوكل»³. وكذلك لا يجوز للمسلم الغلو في أمور

العبادة أو التقصير فيها، وما عليه إلا أن يتبع

طريق الاعتدال والانسجام، والبُعد عن أحد

الطرفين الغلو أو التقصير، ولنا في قصة الرهط

الثلاثة أروع توجيهات نبوية في بيان وسطية

الإسلام في العبادة. فعن أنس رضي الله عنه قال: «جاء

ثلاثة رهط إلى بيوت النبي ﷺ يسألون عن عبادات النبي ﷺ فلما أُخبروا

كأنهم تَقَالُّوْهَا، فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ وقد غفر الله له ما تقدم من

الوسطية التي تنتهجها
الحضارة العربية
الإسلامية توجه المسلم
إلى لزومها في أمور دينه
عقيدة وعبادة. فلا يجوز
للمسلم الإفراط في أمور
العقيدة ولا التفريط فيها،
فلا ينبغي نسيان الدنيا
بحجة الإيمان بالآخرة.

كأنهم تَقَالُّوْهَا، فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ وقد غفر الله له ما تقدم من

1 - القصة المذكورة في البخاري ومسلم، ينظر صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، رقم 6009، وصحيح مسلم، كتاب السلام، باب فَضْلِ سَقْيِ الْبَهَائِمِ الْمُحْتَرَمَةِ وَإِطْعَامِهَا، رقم 2244.

2 - القصة المذكورة في البخاري ومسلم، ينظر صحيح البخاري، كتاب المساقاة، باب فضل سقي الماء، رقم 2365، وصحيح مسلم، كتاب البرِّ وَالصَّلَةِ وَالْأَدَابِ، باب تَحْرِيمِ تَعْدِيْبِ الْهَرَّةِ وَنَحْوِهَا من الحيوان الذي لا يؤذي، رقم 2242.

3 - أخرجه الترمذي، أبواب صفة القيامة والرفائق والورع، باب الحديث: اغْلِقْهَا وَتَوَكَّلْ، رقم 2517، وحسنه الألباني.

ذنبه وما تأخره! قال أحدهم: أما أنا فأقوم الليل أبداً، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً. فجاء رسول الله ﷺ فقال: أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟... أما والله إنني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»¹. والحديث جلي في ذم الغلو ولو كان سببه الحرص الشديد في التزود من الخير، ولو كان فيما يُعبد به الله من العبادات.

الوسطية التي تتحلى بها الحضارة العربية الإسلامية تغطي أصعدة الدين والروح والحياة والمادة، وتطلب من المسلم أن يحقق روح الوسطية في جوانب حياته المختلفة من مأكله وملبسه ومسكنه. قال الله تعالى في القرآن الكريم بياناً لذلك: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: 67]. وفي هدي النبي صلى الله عليه وآله توجيه إلى الاعتدال في الطعام وعدم الإكثار فيه؛ حيث قال: «مَا مَلَأَ آدَمِيَّ وَعَاءٌ شَرًّا مِنْ بَطْنٍ، بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ أَكْلَاتُ يُقْمَنَ صَلْبَهُ، فَإِنْ كَانَ لَا مَحَالَةَ، فَتُلْتُ لِبَطْنِهِ وَتُلْتُ لَشِرَابِهِ وَتُلْتُ لِنَفْسِهِ»². ثم إن المسلم يكرر ذلك الدعاء الذي علّمه ربّه مرات عديدة في اليوم الواحد، حيث يقرأه في كل ركعة يصلّيها وهو قوله تعالى في سورة الفاتحة: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: 6]؛ ذلك ليحذّر نفسه باستمرار من أن يخرج عن طريق الوسط والاعتدال؛ إذ إن «الصراط المستقيم» هو الطريق الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف، وهو طريق الاعتدال والسلام والرحمة والتسامح، وما على المسلم إلا الالتزام به والمثابرة عليه؛ كي يتجنب عن الغلو والضلال، ويفوز بما وعده الله تعالى من خيري الدنيا والآخرة.

ثانياً: منهج الوسطية هو تقليد تاريخي للحضارة العربية الإسلامية وسر نجاحها

إن الحضارة العربية الإسلامية من أهم الحضارات العالمية ذات الأثر

1 - أخرجه البخاري، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، رقم 5063.

2 - أخرجه الترمذي، أبواب الزهد، باب ما جاء في كراهية كثرة الأكل، رقم 2380. قال الترمذي: قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح.

الكبير في تاريخ التقدم الحضاري، ومن أهم ملامحها وتقاليدها أنها تنتهج منهج الوسطية والسلام، وتدعو إلى الحوار والتعايش، وتهتم بالعلم وتحصيله؛ قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات: 13]. وقال النبي ﷺ: «الكلمة الحكمة ضالة المؤمن، فحيث وجدها فهو أحق بها»¹. وما نشأت الحضارة العربية الإسلامية فتطورت فازدهرت فلاح نجمها على وجه الأرض إلا لأن لها دافعاً قوياً كامناً فيها، وهو أنها جعلت التعايش والتسامح والتدارس مفهوماً أساسياً لها في التواصل الحضاري والتفاهم بين الشعوب، إلى جانب التزامها بالمنهج الوسطي

الوسطية التي تتحلّى بها الحضارة العربية الإسلامية تغطي أصعدة الدين والروح والحياة والمادة، وتطلب من المسلم أن يحقق روح الوسطية في جوانب حياته المختلفة من مأكله وملبسه ومسكنه.

والمعتدل. وقد سجل لنا التاريخ أروع دليل على التواصل الحضاري المتمثل في التسامح والتدارس بين الحضارات، ألا وهو ما قام به بيت الحكمة في العصر الذهبي للحضارة العربية الإسلامية من حركة الترجمة التي استمرت أكثر من مائة عام. حيث إن المسلمين قاموا بترجمة ونقل علوم ومعارف حضارات الشرق والغرب إلى العرب، وخاصة حضارات اليونان والهند والفرس والصين، ثم استوعبوها وطوروها وأبدعوا فيها، وخرّجوا علماء وفلاسفة موسوعيين تبحروا في العلوم

الإنسانية والاجتماعية والطبيعية، وقدموا نتائج علمية مبهرة تلفت أنظار العالم، فقاموا بدورهم الفريد التاريخي في التواصل بين الشرق والغرب، وفي الحفاظ على الأعمال الإنسانية المهمة ونقلها إلى الأجيال القادمة. إن حركة الترجمة هذه كانت سبباً للنهضة الأوروبية، وكانت سبباً في تقدم الحضارة البشرية وازدهارها. أشار المؤرخ الأمريكي فيليب حّي Philip K. Hitti (1886 - 1978) إلى أن المسلمين في العالم العربي/الإسلامي كانوا هم الحاملين لشعلة الحضارة الإنسانية الأصيلة طوال العصور الوسطى، وقال: «في العصور الوسطى ليس

1 - أخرجه الترمذي، أبواب العلم، باب ما جاء في فضل العلم على العبادة، رقم 2687. وقال: هذا حديثٌ غريبٌ.



هناك أمة من الأمم تفوق إسهاماتها تجاه التقدم البشري مساهمات تلك الشعوب الذين يتكلمون باللغة العربية»¹. كما أشار خبير الدراسات العربية الإسلامية الأستاذ الصيني جو وي ليه إلى أن الحضارة العربية الإسلامية لعبت دوراً مهماً في التاريخ؛ «إذ إنها قدمت خدمات عامة جليلة للمجتمع الدولي آنذاك، كما أن لها الفضل الأكبر على التواصل والتبادل بين حضارتي الشرق والغرب»².

الحضارة العربية الإسلامية التي تنتهج منهج الوسطية تسعى بجدٍ إلى تعزيز الحوار بين الحضارات المختلفة، وفي الوقت نفسه تخوض معارك ضد الفرق والأفكار المتطرفة، فتاريخ انتشار الحضارة الإسلامية وتطورها هو عين تاريخ الحرب ضد تلك الفرق والأفكار المتطرفة.

يلاحظ من خلال ما سبق أن الواقع في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية هو سيادة المنهج الوسطي على الأفكار والاتجاهات المتطرفة. فالأفكار المتطرفة قد تشيع زمنياً ولكنها لن تدوم، ولن تسيطر على الصعيد الفكري للحضارة العربية الإسلامية بحسب ما أفاد التاريخ؛ لأن الوسطية التي قررها القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة لا تزال فكرة أساسية وتقليداً تاريخياً ومنهج النجاح للحضارة العربية الإسلامية.

والجدير بالانتباه هنا أن الفرق المتطرفة رغم انسحابها من مسرح التاريخ، فإن آثارها السلبية ممتدة إلى يومنا هذا، إضافة إلى أنها تستجد بشكل مستمر. فمثلاً المنظمات الإرهابية التي تززع الأمن في منطقة الشرق الأوسط في أيامنا هذه هي التي أدت إلى أن الحضارة العربية الإسلامية بأن تواجه تحديات قاسية من الداخل والخارج، منها تغلغل الأفكار المتطرفة والمنظمات الإرهابية إضافة إلى التخلف العلمي والتكنولوجي وشيوع ظاهرة التراجع والجمود. وعليه فإن التمسك بالتقاليد الحسنة للتبادل الحضاري، والالتزام

1 - تاريخ العرب، فيليب حتي، ترجمة مكين إلى اللغة الصينية، دار النشر التجاري، 1990م، ج 2، ص 904.

2 - الحضارة الإسلامية والعالم، جو وي ليه، بحث علمي منشور في مجلة (الاقتصاد والسياسة في العالم)، العدد 7، عام 2007م.

بالمنهج الوسطي، والخوض في معركة ضد الأفكار المتطرفة، والمثابرة على مواكبة العصر، والاستفادة من إنجازات الحضارة الحديثة، وإبدال التكفير والتبديع بالتفكير والتجديد، وإبطال المفهوم الخاطئ للجهاد بإحياء المفهوم الصحيح للاجتهاد من المسؤوليات الكبرى التي تقع على عاتق حملة الحضارة العربية الإسلامية. فيجب على المفكرين والعلماء والباحثين في المجالات الدينية والعلمية في العالم العربي الإسلامي أن يلعبوا دوراً إيجابياً في إزالة النزعة المتطرفة اقتداءً بأسلافهم من علماء الأمة حين واجهوا تحديات الأفكار المتطرفة، كما يجب عليهم أن يسعوا في الإصلاحات الجذرية لإظهار الحق وإبطال الباطل، ونشر تقاليد الحضارة العربية الإسلامية من سلام واعتدال وتسامح وحوار حضاري.

إنَّ الحضارة العربية الإسلامية التي تنتهج منهج الوسطية تسعى بجدٍ إلى تعزيز الحوار بين الحضارات المختلفة، وفي الوقت نفسه تخوض معارك ضد الفرق والأفكار المتطرفة.

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن مفهوم الوسطية والاعتدال هو أيضاً من المفاهيم القيمة والتقاليد الثقافية للحضارة الصينية؛ فمنذ آلاف السنين سجلت الحضارتان الصينية والعربية آية مبهرة لـ «أولوية التناغم الاجتماعي» و«الوحدة مع التعدد»، فقدمتا نموذجاً مثالياً في تاريخ التواصل البشري

والتبادل الحضاري. ففي أسرتي تانغوسونغ قبل أكثر من ألف سنة دخل الإسلام في الصين بطريقة سلمية عبر طريقي الحرير البري والبحري، وكانت مسيرته التاريخية في انتشاره على أرض الصين واستيطانه بها قد عكست مسيرة التقدّم التاريخية للتواصل والتدارس بين الحضارتين. وإن الالتزام بالوسطية وحب الوطن والدين من التقاليد الحسنة الدائمة لدى المسلمين الصينيين، حيث قدّموا إسهامات عظيمة تاريخية في التبادل والتدارس بين الحضارتين، وخاصة علماء المسلمين في أسرتي مينغ وتشنغ الذين بذلوا قصارى جهودهم في تأليف الكتب الإسلامية باللغة الصينية، وقاموا بتعريف الحضارة الإسلامية بأساليب علماء الكونفوشيوسية في



تأليفهم، ووضعوا التبادل والتدارس بين الحضارتين نصب أعينهم حتى قالوا: «إن طريق النبي العربي هي طريق الحكيم الصيني نفسها، بحيث بنى كلاهما تعاليمه على أساس بيان الحق والحكمة في خلق السماوات والأرض والموت والحياة، فعلى الإنسان أن يلتزم بالقيم الأخلاقية في مأكله ومسكنه ومعيشته كلها خاشعاً لله ﷻ»¹. وقالوا أيضاً: «إن ديننا الإسلامي بُني على الأسس الوسطية والاعتدال والسلام والانسجام»².

اليوم وفي هذه الفترة التاريخية الجديدة لبناء الحزام والطريق - المشروع الذي شاركت فيه جميع الدول الواقعة على الخط بما فيها الصين والدول العربية - يلتزم أوساط الإسلام وجميع القوميات المسلمة في الصين بتقاليدهم في حب الوطن والدين، ويواظبون على مواكبة العصر، ويسيرون على المنهج الوسطي، ويبتعدون عن التطرف والانحراف، ويأخذون من جميع الحضارات، ويدعون إلى السلام، كما أنهم يشاركون القوميات الأخرى والوطن الأم في السراء والضراء تحت ظل تحقق حلم النهضة الوطنية الصينية، ويسارعون إلى عملية التواصل والتعارف مع جميع الأمم في العالم، كما أنهم يسارعون إلى دفع التبادل الحضاري والاتصال الوجداني بين الشعب الصيني والشعوب العربية، ويقدمون إسهاماتهم في طريق بناء «مجتمع ذي مصير مشترك مع البشرية».

1 - منهاج المسلمين، ما جو، دار نشر الشعب في تشنغهاي، ط 1989م، ص 40.

2 - المرجع السابق، ص 363.